خيرية الأمة

«شروط مكتسبة لا عنصرية موروثة»

ـ ١ ـ

تمهيد

عندما يكون الحديث عن الصفات والشمائل التى يتحلى بها الإنسان ـ على مستوى الأفراد أو الجماعات ـ فإن هناك حدودا فارقة بين «**الصفات اللصيقة**» وبين «**الصفات المكتسبة**» . . فإن يكن الإنسان طويلاً أو قصيراً . . أسود أو أبيض أو أصفر . . مرسل الشعر أو أجعده . . عربيًا أو أعجميًا . . شرقيًا أو غربيًا . . من سكان الشمال أو الجنوب . . إلخ . . إلخ . . فهى جميعا ـ وأمثالها ـ «**صفات لصيقة**» لا يتفاضل فيها أو بها إنسان على إنسان أو أمة على أمة؛ لأنها صفات جبلِّية وطبيعية، لا دخل للإنسان فى الاتصاف بها، ولا حيلة فى تغييرها، حتى إذا أراد لَها التغيير . .

ولذلك، فليس من العدل ولا من الحكمة أن يتفاضل الناس بهذا النوع من الصفات، وإلا كان ذلك تكليفًا للناس بما لا يطاق، وبما لا يستطيعون إليه سبيلاً ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أما الصفات التى يتم فيها وبها التفاضل بين الناس، فهى «**الصفات المكتسبة**»، التى يخضع اكتسابها والتفاوت فى درجاتها للإرادات والطموحات والقدرات والمهارات، وذلك من مثل «الإيمان» و«التقوى» و«محاسن الأخلاق» و«البراعة فى العلوم والفنون والآداب»، وفى «المهارات» التى تضع العلوم والفنون فى الممارسات والتطبيقات . . فبهذه «**الصفات المكتسبة**» يتمايز الناس، أفرادًا وجماعات، ويتفاضلون ويتسابقون على درجات سلم «**الخيرية**»؛ لأن اكتساب هذه الصفات والتسابق فى ميادينها هو مما يستطيعه الكافة، بحسب ما لديهم من عزائم وإرادات وقدرات ومهارات، وبقدر ما يبذلون فى ذلك من مجهودات وتضحيات.

ولهذه الحقيقة البدهية، وجدنا العدل الإلهى يحدثنا عن أن التكريم ـ تكريم الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ إنما كان لمطلق بنى آدم. . «فالخلق» صفة لصيقة بجميع بنى آدم، والنفخ فيهم من روح الله ـ وهو سر التكريم ـ عام يستوى فيه الجميع، وكذلك «التسخير» الإلهى لكل قوى الطبيعة للإنسان ـ مطلق الإنسان ـ هو من القضاء الحتم الذى شاءته الحكمة الإلهية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وتحت هذا التكريم العام يأتى التفاضل والتفاوت والتمايز فى الصفات الإنسانية المكتسبة، ومنها «التقوى» و«العلم» ـ مثلاً ـ فيقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. . فالخلق من ذكر وأنثى، وتقسيم الخلائق إلى شعوب وقبائل، هما من الصفات اللصيقة. . أما التفاضل بالتقوى فهو مما يكتسبه الإنسان، وتتفاوت فيه الدرجات والقدرات. . وكذلك الحال مع «العلم»: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

* * *

ـ ٢ ـ

خيرية مشروطة

ولهذه الحقيقة من حقائق العدل الإلهى، كان حديث القرآن الكريم عن خيرية الأمة الإسلامية ـ وعن أنها خير أمة أخرجت للناس ـ حديثًا عن «**خيرية مشروطة**» باكتساب هذه الأمة لمجموعة من «**الصفات المكتسبة**»، تتوقف خيريتها ـ ومقادير هذه الخيرية ـ على ما حصّلت هذه الأمة من هذه الصفات. . وليس حديثًا عن «**خيرية مطلقة**»، تدعيها هذه الأمة بحكم العرق أو الجنس أو اللون أو الميراث أو التاريخ، أو أية صفة من «**الصفات اللصيقة**» التى لا فضل لها فى تحديد معايير الخيرية ودرجاتها.

وإذا نحن ذهبنا إلى السياق القرآنى الذى تحدث عن خيرية الأمة الإسلامية، وتميزها بهذه الخيرية عن غيرها من الأمم، نجد مصداق هذا المنهاج الذى تحدثنا عنه وحددناه. . ففى هذا السياق ـ الذى تحدثت فيه آيات سورة آل عمران: ١٠٢ ـ ١١٠ عن هذه الخيرية ـ نجدها مشروطة باكتساب هذه الأمة الإسلامية، وتحقيقها وتطبيقها للعديد من القيم والمبادئ والشروط. .

وذلك من مثل:

١ ـ أن تكون هذه الأمة «**أمة مؤمنة**»، جامعة فى إيمانها كل أركان الإيمان ـ الإيمان بالله، واليوم الآخر، وبدين الله الواحد، وبسائر الكتب والنبوات والرسالات ـ وذلك حتى لا تكون هذه الخيرية مجرد «منافع» دنيوية، يحسّنها العقل المجرد عن الشرع، بعيدا عن الانتماء لخالق الخير وواهبه للإنسان.

٢ ـ وأن ترتقى هذه الأمة ـ كى تحقق الخيرية على غيرها من الامم ـ على سلم الإيمان، فتحقق مستوى «**التقوى**»، التى هى الضمير الحى للمؤمن، الذى يتقى

ويتجنب كل ما يغضب مولاه . . وللخيرية فى هذا المستوى درجات، أعلاها أن نتقى الله حق تقاته ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] . . وأدناها أن نتقى الله قدر المستطاع ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] . . وللاستطاعة ـ هى الأخرى ـ درجات يتفاوت فى طلبها وتحقيقها المتقون .

٣ ـ وأن لا تكون هذه التقوى مقصورة على ذات الفرد التقى؛ لأن الإسلام دين الجماعة، وكثير من فرائضه وتكاليفه جماعية واجتماعية، لا تتأتى ولا تُقام إلا فى وطن وأمة وجماعة واجتماع، حتى إن رهبانية الإسلام كانت الجهاد فى سبيل الله، وليست العزلة الفردية التى تبغى الخلاص الفردى عن طريق إدارة الظهر للجماعة والمجموع . . ولذلك كانت خيرية الأمة الإسلامية مرهونة بتحقيق فريضة التآلف والألفة والاتحاد والاعتصام بحبل الله . .

٤ ـ أما الشرط الرابع لخيرية الأمة الإسلامية، فإنه شرط عام يشمل سائر فرائض العمل الاجتماعى العام . . إنه شرط أن تكون هذه الأمة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر . . مغيرة للمنكر إذا وقع . .

* فإقامة العدل ـ مع الذات ومع الآخر ـ حتى لو كنا نكرهه، أو حتى نحاربه .

* وإشاعة منهاج الوسطية الإسلامية الجامعة ـ فى الفكر والتطبيق .

* وإقامة الشورى ـ فى الأسرة . . والمجتمع . . والدولة .

* والتكافل الاجتماعى، الذى يحقق عدالة التوازن، والتوازن العادل بين شرائح المجتمع الإسلامى وطبقاته حتى تكون الأمة كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

* وتحقيق قيمة الحرية ـ المضبوطة بضوابط الشريعة الإلهية ـ فى مختلف ميادين الحياة ـ الفكرية والعملية .

* والجهاد لنصرة المظلومين وتحرير المستضعفين فى الأرض .

* والتسابق على طريق الخيرات التى تحقق سعادة الناس فى الدنيا والآخرة .

كل هذه الفرائض الاجتماعية ـ وأمثالها ـ هى بعض من التكاليف التى وضعها الإسلام تحت الفريضة العامة والجامعة: «**الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**». . وهى التى أناطها بكل المكلفين ـ رجالا ونساء: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٧١]. .

وبإقامة هذه الفرائض الاجتماعية ـ والاتصاف بثمراتها ـ تتحقق خيرية الأمة الإسلامية. . بل إن غيبة هذه الفرائض الاجتماعية وصفاتها يسلب من الناس حتى معنى «الأمة ـ الجماعة». . وليس فقط صفة «الخيرية». . لأنهم يكونون عندئذ مجرد «أفراد» مبعثرين، وليسوا «أمة» من الأمم!. .

* * *

عن ذلك كله تحدث القرآن الكريم، عندما عرض لخيرية الأمة الإسلامية، وشروط هذه الخيرية، وصفات الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس. . فقال:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢ ـ ١١٠].

فجماع الصفات التى تحقق خيرية الأمة الإسلامية ـ إذا أردنا تكثيفها ـ هى:

١ ـ الإيمان . . الذى هو الشرط فى حفظ الأعمال من الإحباط . .

٢ ـ والعمل الصالح . . الذى تندرج كل شعبه وتكاليفه وفرائضه تحت فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وجميع شروط هذه الخيرية وصفاتها ومؤهلاتها «مكتسبة»، وأبواب ميادينها مفتوحة أمام سائر عباد الله . . وليست صفات «لصيقة»، ولا هى حكر على من يتسمون بأسماء المسلمين، ويدّعون أنهم مسلمون ـ **ففارق بين أن يكون الناس مجرد مسلمين، وبين أن يكونوا الأمة الإسلامية التى هى خير أمة أخرجت للناس** . . بل إن الآية تقول: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠] . . فأبواب الخيرية مفتوحة أمام الجميع! . . وهى موصودة أمام الذين أوصدوها باختيارهم عندما كفروا بالتوحيد . . وفرقوا بين الرسل . . وكتبوا الكتاب بأيديهم ثم قالوا هو من عند الله . . وعندما ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

***

ـ٣ـ

التعريف بالمصطلحات

ولأن هذا هو الموقف القرآنى من خيرية الأمة الإسلامية . . وتلك هى صفاتها وشروطها، كان لزاما تحرير مضامين المصطلحات فى هذا المبحث . . مصطلحات :

١ ـ الأمة . .

٢ ـ والخير . .

٣ ـ والمعروف . .

٤ ـ والمنكر . .

٥ ـ والفارق بين «الأمر . . والنهى» وبين «التغيير» . .

* ولأن شروط تكوين «الأمة» هى الأخرى شروط «مكتسبة»، وليست «لصيقة» ـ كالعرق والجنس واللون ـ كان معناها ومفهومها ـ فى العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ وفى الإسلام مفهومًا مفتوحة أبوابه لكل من يكتسب الشروط والصفات التى يطلق مصطلح «الأمة» على المكتسبين لها والمتصفين بها . . وكان تحقق معنى هذه الأمة مستمرا دائمًا وأبدا . .

فالأمة ـ كما يقول الراغب الأصفهانى [٥٠٢ هـ ١١٠٨م] ـ : **«كل جماعة يجمعها أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾** [الأنعام: ٣٨] . . أى كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع . . ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] . . صنفًا واحدًا وعلى طريقة واحدة . . ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

لجعلكُمْ أُمَّةً واحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨]. . أي في الإيمان. . ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] أي: جماعة يتخيرون العلم والعمل الصالح. يكونون أسوة لغيرهم. . ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣]. . أي على دين مجتمع. . ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]: أي بعد حين، أي بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين. . ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]. . أي قائما مقام جماعة في عبادة الله. . »[1].

ونحن نلاحظ أن جوامع الأمة، وإن صدرت عن التسخير الإلهي في «الحيوان» و«الزمان» فإنها كانت دائمًا اختيارية مكتسبة في عالم الإنسان. . وهذا ملحظ مهم له دلالته في كون الخيرية ـ خيرية الأمة الإسلامية ـ هي ثمرة للشروط والصفات المكتسبة، المفتوحة أبواب ميادينها أمام الناس كافة. . ومن ثم فإن هذه الخيرية لا علاقة لها بالصفات اللصيقة، ولا بالاحتكار النابع من أوهام «العنصرية» التي سادت هذا المفهوم خارج إطار الإسلام! . .

هذا عن مصطلح الأمة. .

* أما مصطلح «الخير» فإنه ـ كما يقول الراغب الأصفهاني ـ «**ضربان**»:

١ ـ خير مطلق، وهو أن يكون مرغوبًا فيه بكل حال وعند كل أحد. . كالعقل مثلاً، والعدل، والفضل، والشيء النافع.

٢ ـ وخير مقيد، وهو ما يكون خيرًا لواحد شرًا للآخر، كالمال الذي ربما يكون خيرًا لزيد وشرًا لعمرو، ولذلك وصفه الله ـ تعالى ـ بالأمرين فقال في موضع: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]. **وقال في موضع آخر: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾** [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦][2].

* أما مصطلح «المعروف» فهو ـ عند الراغب الأصفهاني ـ: «**اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حُسنه**».

* ويقابله «المنكر»: **الذي يُنكر بالعقل والشرع معًا**[3].

ـ ٤ ـ

رؤية حضارية لخيرية الأمة

ولقد كان الإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] من أكثر المفسرين المجتهدين الذين وقفوا وقفات عبقرية وواعية أمام هذه الآيات التى تحدثت عن صفات الخيرية فى الأمة الإسلامية، مفصلاً فى الآفاق والمقاصد الحضارية ـ العصرية والمستقبلية ـ التى تجعل هذه الخيرية سبيلاً للإقلاع الحضارى، الذى يعتق المسلمين وينقذهم من المأزق الذى يأخذ منهم بالخناق..

* فهو يعرِّف «الخير» ـ المراد فى هذه الآيات ـ **بأنه «الإسلام، الذى هو دين الله على لسان جميع الأنبياء لجميع الأمم، وهو الإخلاص لله تعالى، والرجوع عن الهوى إلى حكم الله، وهذا مطلوب منا بحكم جعلنا أمة وسطًا وشهداء على الناس..»**.

* **«وخير أمة أخرجت للناس.. مقيد بكوننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر»**[٤].

فليست كل قوة محمودة.. وليس كل تمكين فى الأرض يكون خيراً ـ بهذا المعنى الإسلامى للخير والخيرية ـ ﴿أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [الروم: ٩].. ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين (٨٠) وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين (٨١) وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين (٨٢) فأخذتهم الصيحة مصبحين (٨٣) فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٤].. ﴿ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون (٥١) أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٢].

فهناك «مفاهيم فرعونية» للخيرية، لا علاقة لها بالمفهوم الإسلامى لهذه الخيرية..

والذى يجب أن يرتكز على إقامة الفرائض التى تجمعها فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

* ولقد جاء تعريف الإمام محمد عبده لمصطلحى «المعروف» و«المنكر» قريبًا من تعريف الراغب الأصفهانى لهما..

«فالمعروف ـ عند إطلاقه ـ: يراد به ما عرفته العقول والطباع السليمة، والمنكر: ضده، وهو ما أنكرته العقول والطباع السليمة. وإنما المرشد إليه ـ مع سلامة الفطرة ـ كتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر، والعمل، وهو ما لا يسع أحد جهله، ولا يكون المسلم مسلمًا إلا به»[٥].

«ولقد وقف الإمام محمد عبده وقفة ذكية أمام اختلاف المفسرين فى معنى «من» فى آية ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]... وهل معنى «من» هو «البيان»، فتكون الخيرية لكل الأمة وعامتها؟ وتكون فرائض الدعوة إلى الخير ـ الإسلام ـ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبة على كل آحاد الأمة؟؟

أم أن معنى «من» هو «التبعيض»، فتكون فريضة الدعوة إلى الخير ـ الإسلام ـ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خاصة بفئة بعينها، هى «الأمة الخاصة» التى تتكون من الصفوة والنخبة والقيادات التى تختارها ـ لهذه المهمة ـ الأمة العامة؟؟

لقد وقف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وقفة ذكية أمام هذا الاختلاف الشهير بين المفسرين لمعنى «من» فى هذه الآية.. وانتهى ـ بعد الشرح والتفصيل ـ إلى الرأى الذى يجمع بين التفسيرين..

فنحن ـ بإزاء جماعة المسلمين ـ أمام أمتين، أو أمة ذات مستويين:

١ ـ المستوى العام للأمة العامة.. والدعوة إلى الخير ـ الإسلام ـ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ مثلها كمثل الإيمان بالله ـ فريضة على كل واحد من أفراد هذه

الأمة، بحسب المقدرة والاستطاعة والإمكانات التى لدى كل فرد من الأفراد . .

٢ ـ والمستوى الخاص للأمة الخاصة، ذات المؤهلات الأعلى والقدرات الأكبر فى النهوض بهذه الفريضة . . واختيار هذه الأمة الخاصة وانتخابها ـ وكذلك مراقبتها ومحاسبتها وتغييرها ـ هو فرائض واجبة على الأمة الإسلامية بالمعنى الشامل والعام . .

وفى هذا التفسير الجامع يقول الأستاذ الإمام:

«وإذا كان كل فرد من أفراد المسلمين مكلفًا بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمقتضى الوجه الأول فى تفسير الآية ـ على أن «من» بيانية ـ فإنهم مكلفون بمقتضى الوجه الثانى ـ على أن «من» للتبعيض ـ أن يختاروا أمة منهم تقوم بهذا العمل لأجل أن تتقنه وتقدر على تنفيذه . . فإقامة هذه الأمة الخاصة فرض عين يجب على كل مكلف أن يشترك فيه مع الآخرين . ولا مشقة فى هذا علينا، فإنه يتيسر لأهل كل قرية أن يجتمعوا ويختاروا واحدا منهم أو أكثر، أن يختاروا جماعة يصح أن يطلق عليهم لفظ الأمة، ويعملوا ما تعمله بالاتحاد والقوة ليتولوا إقامة هذه الفريضة فيها، كما يجب فى كل مجتمع إسلامى ـ سواء كان فى الحواضر أو البوادى ـ فإن معنى الأمة يدخل فيه معنى الارتباط والوحدة التى تجعل أفرادها على اختلاف وظائفهم وأعمالهم ـ حتى فى إقامة هذه الفريضة عند تشعب الأعمال فيها ـ كأنهم شخص واحد.

وهذه الأمة يدخل فى عملها الأمور العامة التى هى من شأن الحكام، وأمور العلم وطرق إفادته ونشره، وتقرير الأحكام، وأمور العامة الشخصية. ويشترط فيها العلم بذلك، ولذلك جعلت أمة، وفى معنى الأمة القوة والاتحاد، وهذه الأمور لا تتم إلا بالقوة والاتحاد . . وأعمال هذه الأمة لا تتم إلا بأمور كثيرة، منها:

١ ـ العلم التام بما يدعون إليه . .

٢ ـ والعلم بحال من توجه إليهم الدعوة . .

٣ ـ ومناشئ علم التاريخ العام . .

٤ ـ وعلم تقويم البلدان . .

٥ ـ وعلم النفس . .

٦ ـ وعلم الأخلاق . .

٧ ـ وعلم السياسة .

٨ ـ والعلم بالفنون والعلوم . .

٩ ـ ومعرفة الملل والنحل .

١٠ ـ والعلم بلغات الأمم التى تراد دعوتها . .

ثم إن كون الأمة الخاصة منتخبة من الأمة العامة يقتضى أن تكون للعامة رقابة وسيطرة على الخاصة، تحاسبها على تفريطها، ولا تعيد انتخاب من يقصر فى عمله لمثله، فالأمة الصغرى المنتخَبة ـ بفتح الخاء ـ تكون مسيطرة على أفراد الأمة الكبرى المنتخبة ـ بكسر الخاء ـ وهذه تكون مسيطرة على الأمة الصغرى، وبهذا يكون المسلمون فى تكافل وتضامن . . فهاهنا فريضتان :

إحداهما : على جميع المسلمين . .

والثانية : على الأمة التى يختارونها للدعوة .

ولا يفهم معنى هذا حق الفهم إلا بفهم معنى لفظ الأمة، وليس معناه «الجماعة» كما قيل، وإلا لما اختير هذا اللفظ . والصواب أن الأمة أخص من الجماعة، فهى الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء فى بنية الشخص، والمراد بكون المؤمنين كافة مخاطبين بتكوين هذه الأمة لهذا العمل هو أن يكون لكل فرد إرادة وعمل فى إيجادها وإسعادها ومراقبة سيرها بحسب الاستطاعة، حتى إذا رأوا منها خطأ وانحرافًا أرجعوها إلى الصواب .

وقد كان المسلمون فى الصدر الأول، لا سيما زمن أبى بكر [٥١ ق هـ ١٣ هـ/ ٥٧٣ ـ ٦٣٤م] وعمر [٤٠ ق هـ ـ ٢٣هـ/ ٥٨٤ ـ ٦٤٤م] على هذا النهج من المراقبة للقائمين بالأعمال العامة، حتى كان الصعلوك من رعاة الإبل يأمر مثل عمر بن الخطاب ـ وهو أمير المؤمنين ـ وينهاه فيما يرى أنه الصواب، ولا بدع فالخلفاء على نزاهتهم وفضلهم ليسوا بمعصومين، وقد صرح عمر بخطئه ورجع عن رأيه غير مرة . . »[٦] .

وبهذا التفسير الجامع لمعانى حرف «من» ـ البيان . . والتبعيض ـ تكون أعباء الخيرية وتكاليفها، وكذلك ثمراتها وفضائلها عامة فى الأمة الإسلامية، بالمعنى العام للأمة، وبالمعنى الخاص المتمثل فى الصفوة والنخبة والزيادات والقيادات، فلا تكون الخيرية حكرا على فريق دون غيره من الفرقاء.

* * *

وعلى حين اتجه بعض المفسرين لهذه الآيات القرآنية ـ آيات الصفات والشروط المحققة لخيرية الأمة الإسلامية ـ إلى تضييق نطاق من تجب عليهم فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ من باب آخر ـ فأخرجوا من هذا النطاق من كان غير مؤتمر بالمعروف ومنته عن المنكر . . ومن كان غير آمن على نفسه إذا هو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر . . رأينا الأستاذ الإمام يرفض هذا الاتجاه، ويؤكد على وجوب هذه الفريضة الجامعة على كل المؤمنين بالإسلام . . فيقول ـ متعجبا من هذا الرأى ـ :

«ومن عجب أن بعض الناس اشترطوا لهذه الفريضة ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ شرطًا لم يأذن به الله، ولم ينزله فى كتابه، وهو أنه لا يأمر وينهى إلا من كان مؤتمرًا، ومنتهيًا . .

ويشترط بعضهم للوجوب شرطًا آخر، وهو الأمن على النفس . . وكان ينبغى أن يقولوا: على الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة حتى لا ينفر الناس، أو لا يحملهم على إيذائه، فإن الله يقول: إنه لا نجاة للناس إلا بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر، ولم يشترط فى ذلك شرطًا.

إن الله ـ تعالى ـ أمر الناس بالتواصى بالحق والدعوة إلى الخير، وأمرهم أن يعدوا لذلك عدته ويعرفوا سبله، وهى مبسوطة فى السنة . . فهذه هى الحكمة، وبها تجب القدوة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] . . وإنا لن نكون متبعين له حتى نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر على سنته وطريقته . .»[٧].

* * *

كذلك يرفض الأستاذ الإمام محمد عبده الآراء التى تذهب إلى تضييق نطاق

التكليف بهذه الفريضة الجامعة لشروط الخيرية وصفاتها، عن طريق اشتراط «قدرات متميزة» فيمن يقوم بها. . وينبه الأستاذ الإمام على أن ذلك إنما حدث لأصحاب هذا الرأى من الخلط بين «**الأمر**» بالمعروف و«**النهى**» عن المنكر، وبين «**التغيير**» للمنكر. . فالتغيير هو الذى يحتاج إلى شروط وقدرات وإمكانات وتخصصات؛ لأنه «تغيير» للمنكر بعد وقوعه فهو «فعل» يقتلع «واقعًا». . أما «الأمر». . «والنهى» فإنهما فريضة عامة وشاملة لكل آحاد المؤمنين، ولجماعتهم على السواء. . وهما تنبيه وتحذير للحيلولة دون تجسد المنكر فى الواقع والتطبيق. .

ينبه الأستاذ الإمام على هذه الحقيقة، فيقول:

«وهنا يخلطون. . بين النهى عن المنكر وتغيير المنكر الذى جاء فى حديث: «من رأى منكم منكرًا فليغيره. .» ـ رواه مسلم والترمذى والنسائى ـ. . وهنا شىء آخر غير النهى البتة، فإن النهى عن الشىء إنما يكون قبل فعله، وإلا كان رفعًا للواقع أو تحصيلاً للحاصل، فإذا رأيت شخصًا يغش السمن مثلاً وجب عليك تغيير ذلك ومنعه بالفعل إن استطعت، فالقدرة والاستطاعة هنا مشروطة بالنص، فإن لم تقدر على ذلك وجب عليك التغيير باللسان، وهو غير خاص بنهى الغاش ووعظه، بل يدخل فيه رفع أمره إلى الحاكم الذى يمنعه بقدرة فوق قدرتك. أما التغيير بالقلب فهو عبارة عن مقت الفاعل وعدم الرضى بفعله. وللنهى طرق كثيرة وأساليب متعددة، ولكل مقام مقال.

نعم، إن دعوة الأمة غيرها من الأمم إلى الخير الذى هى عليه لا يطالب بها كل فرد بالفعل، إذ لا يستطيع كل فرد ذلك، وإنما يجب على كل فرد أن يجعل ذلك نصب عينيه حتى إذا عنَّ له بأن لقى أحدًا من أفراد تلك الأمم دعاه، لا أنه ينقطع لذلك ويسافر لأجله، وإنما يقوم بهذا طائفة يعدون له عدته، وسائر الأفراد يقومون به عند الاستطاعة، فهو يشبه فريضة الحج، وهى فرض عين ولكن على المستطيع.

وفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر آكد من فريضة الحج، ولم يشترط فيها الاستطاعة لأنها مستطاعة دائمًا. .

وجملة القول، أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض حتم على كل مسلم. . وكون هذا حفاظًا وحرزًا للأمة ظاهر، فإن الناس إذا تركوا دعوة

الخير، وسكت بعضهم لبعض على ارتكاب المنكرات خرجوا عن معنى الأمة، وكانوا أفذاذا متفرقين لا جامعة لهم.. فلا بد للمرء فى حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا سيما أمهات المنكرات المفسدة للاجتماع كالكذب والخيانة والحسد والغش. فهذا ليس من فروض الكفاية التى يتواكل فيها الناس كصلاة الجنازة.. ولكنه إذا رأى منكرًا وجب عليه أن ينهى عنه ولا ينتظر غيره..»[٧].

* * *

هكذا تجلت فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فريضة جامعة لصفات الخيرية فى الأمة الإسلامية، وهى فريضة يتوجه التكليف الإسلامى بها إلى الكافة؛ لأن شروطها وصفاتها مكتسبة، مفتوحة أبواب ميادينها أمام أصحاب العزائم والإرادات من كل الأجناس والطبقات.. وليست حكرًا على سلالة أو جنس أو لون أو طبقة، كحال الصفات اللصيقة، التى هى جبلِّية لا مجال فيها للاجتهاد والتغيير.

وهكذا رأيناها فى التصور الحضارى للإمام محمد عبده معبرة عن **خلاصة «مشروع للنهضة»، تصلح به الأمة آخرها، كما سبق وأصلحت به أولها.. وليست مجرد صورة تقليدية للحض على العبادات الفردية، كما تصورها ويصورها نفر من أهل الجمود والتقليد!..**

إنها إقامة النظام الإسلامى المؤمن، والعادل والشامل، المحقق للأمانة التى حملها الإنسان الخليفة لله ـ سبحانه وتعالى ـ.. أمانة «العمران المؤمن» لهذا الوجود.

فبإقامة «العمران المؤمن» تتحقق خيرية الأمة الإسلامية، ذلك الذى يتحقق فيه وبه انتماء الأمة إلى بارئها ـ سبحانه وتعالى ـ متطلعة أرواحها إلى مصدر الروح الإلهى الذى منه كان الشرف والتشريف والتكريم والتفضيل للإنسان حتى على الملائكة المقربين.

وبقيام هذا «العمران المؤمن» على «التقوى»، التى هى الثمرة الطيبة لفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تتحقق خيرية الأمة الإسلامية، عندما تثمر هذه الفريضة «النظام العام.. والآداب العامة»، فتكون الخيرية ـ فى كلمات قليلة ـ هى الأمانة التى عرضها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان!..

* إن العدل اسم من أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى موازين العدل قامت عوالم السماوات والأرضين.

* وفى الاجتماع الإنسانى، جاءت الشريعة الإلهية عدلاً كلها.. وحكمة كلها..

* ولذلك، جعل الله للخيرية فى الأمم والشعوب والحضارات معايير غير خاضعة للمحاباة. ولا للميراث.. ولا للادعاء ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].. ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

أما الذين يجعلون من الخيرية ميراثًا عن الآباء والأجداد ـ مع التخلى عن شروطها وصفاتها ومؤهلاتها ـ فإنهم أشبه ما يكونون باللصوص الذين يأكلون التراث أكلاً لـمّا.. أو الذين لا يرون فى تاريخهم الحضارى أكثر من «أكفان للموتى»!.. طامعين فى معاندة السنن الإلهية الحاكمة لأسباب التقدم والتخلف، والنهوض والانحطاط ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤٢]..

فأبواب الخيرية مفتوحة على مصاريعها أمام الأفراد والأمم والشعوب.. وشروطها وصفاتها ومؤهلاتها هى نعم إلهية متاحة للراغبين العاملين فى مختلف الميادين.

وإلا فإن الذين فضل الله آباءهم على العالمين، يمكن أن يكونوا الأذلة الملعونين أينما ثقفوا إلا بحبل من الله الذى لا تحابى عدالته أحداً من العالمين.

* * *

ـ ٥ ـ

عنصرية نزعة شعب الله المختار

وفى مقابل هذا المنهاج الإسلامى الذى يُخضع الخيرية ـ فى الأمم والشعوب والحضارات ـ للسببية والأسباب، ويجعلها ثمرة للصفات المكتسبة، المتاحة للأفراد والجماعات.. وجدنا ونجد النزعة العنصرية فى «التراث اليهودى»، وفى «تاريخ» الجماعات اليهودية، وفى «الممارسات الصهيونية» القائمة فى واقعنا المعاصر الذى نعيش فيه.

* لقد حولت هذه النزعة العنصرية شريعة اليهودية التى جاء بها موسى ﷺ عن جوهر التوحيد، الذى يجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ واحداً أحداً وربًا لكل العالمين، إلى حيث احتكرته لذاتها ـ على قلة عدد أصحابها ـ جاعلة للشعوب الأخرى آلهتها!

* وحولت هذه النزعة العنصرية معايير التدين باليهودية عن أصولها الطبيعية والمنطقية.. فبدلاً من أن يكون الإيمان الدينى، والالتزام بمنظومة القيم والأخلاق، وعبادة الله وفق ما جاءت به الشريعة، هى معايير «التهود»، جعلوها معايير عرقية وعنصرية ـ بيولوجية! ـ.. فاليهودى ـ فى هذه النزعة العنصرية ـ هو المولود من أم يهودية حتى ولو انقطعت علاقاته بجوهر الدين!.. وبعبارة المفكر اليهودى «إسرائيل شاحاك»: **«فإن كون الإنسان يهوديا يعتمد على الانحدار من سلالة الأم، وليس على الإيمان الفعلى للشخص»**[٩]..

* وحولت هذه النزعة العنصرية معايير الخيرية من الأسباب والصفات الموضوعية والمكتسبة، إلى حيث جعلوها احتكاراً موروثًا فى نطاق هذه القلة التى تدعى الانتساب إلى العبرانيين القدماء.. فقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨].. وزعموا

أنهم وحدهم ـ وبصرف النظر عن المؤهلات والصفات ـ هم «شعب الله المختار»، الذين اصطفاهم واختارهم، بل و«قدسهم» دون العالمين.. وفوق جميع العالمين!..

* وانطلاقًا من هذه النزعة العنصرية، التى احتكرت الخيرية، وارتفعت بها إلى مستوى «القداسة» و«العصمة» ـ عصمة الذين يفعلون ما يريدون، ولا يُسألون عما يفعلون! ـ كان العداء والاحتقار.. والكراهية.. والاستباحة لكل الأغيار ـ الذين يبلغون اليوم أكثر من ستة مليارات نسمة ـ فى مقابل ثلاثة عشر مليونًا من اليهود!!.. فكل هؤلاء الأغيار ـ أى كل خلق الله تقريبًا ـ مستباحة حرماتهم.. وأعراضهم.. ودماؤهم.. وأموالهم.. وأوطانهم؛ لأنهم ليسوا من «شعب الله المختار»، المقدس دون جميع الشعوب، وفوق جميع الشعوب!..

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النزعة العنصرية عندما قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].. ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].. ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]..

* لقد فتح القرآن الكريم أبواب النجاة أمام كل الذين يؤمنون بوحدانية الله.. ويؤمنون بالغيب.. ويعملون الصالحات، على تنوع الشرائع الإلهية التى يتخذونها سبيلاً للتعبير عن أصول هذا الإيمان ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]..

* ودعا القرآن الكريم كل أمم الرسالات السماوية إلى كلمة سواء: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

* وقررت السنة النبوية ـ فى الممارسات الحياتية والاجتماعية وحقوق المواطنة ـ كامل المساواة لكل البشر، على اختلاف الأجناس والألوان والمعتقدات: **«لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»**[١٠].

* ولقد نهض رسول الله ﷺ احترامًا لحرمة جنازة يهودى ـ غير مسلم ـ . . فلما تساءل بعض أصحابه:

ـ يا رسول الله، إنها جنازة يهودى؟! قال صلى الله عليه وسلم:

ـ **«أليست نفسا»**؟ . .

وصنع ذلك صحابته مع جنازات مجوسية إبان التحرير الإسلامى للعراق ـ رواه البخارى ومسلم ـ .

* وكتب الإمام على بن أبى طالب [٢٣ ق هـ ـ ٤٠ هـ ٦٠٠ ـ ٦٦١م] ـ كرم الله وجهه ـ فى عهد تولية واليه على مصر «الأشتر النخعى» [٣٧ هـ ـ ٦٥٧م] ـ يعلمه هذه القيم الإسلامية، فقال له: **«الناس صنفان: إما أخ لك فى الدين، وإما نظير لك فى الخَلْق»**[١١].

* * *

* لكن النزعة العنصرية لعقيدة «شعب الله المختار» قد جعلت اليهود ـ بنص الأسفار التى كتبوها بأيديهم ثم قالوا هى من عند الله . . وبنص شروحها المرجعية فى [التلمود] ـ قد جعلتهم يقولون:

ـ **«إن كلمة «نفس» تعنى اليهودى، ويستثنى منها غير اليهود والكلاب»**[١٢].

ـ **«وإن الأغيار ليسوا من الإنسانية . . وإنما هم شياطين . . وكلاب . . وحمير . . وخنازير . . فكل غير اليهود مخلوقات شيطانية، ليس بداخلها أى شىء جيد على الإطلاق، حتى الجنين غير اليهودى يختلف نوعيًا عن الجنين اليهودى، كما أن وجود غير اليهودى مسألة غير جوهرية فى الكون، فلقد تشاكل الخلق من أجل اليهود فقط»!**[١٣].

* وانطلاقًا من هذه النزعة العنصرية فى احتكار الخيرية . . بل واحتكار الإنسانية!! . . أفاض [التلمود] . . الذى هو جماع الشريعة عند اليهود ـ فى الحض على :

ـ لعن الأغيار . . وأمهاتهم . . . بل وموتاهم؛ لأنهم كلاب! . . والدعاء عليهم بالدمار»![١٤] .

ـ وإسقاط الأهلية عن كل الأغيار![١٥] .

ـ وإباحة النَّصْب على الأغيار، والخداع لهم![١٦] .

ـ وإباحة سرقة الأغيار![١٧] .

ـ والحض على الربا فى التعامل مع الأغيار![١٨] .

ـ بل وإباحة الزنا بنسائهم «لأن كل النساء غير اليهوديات عاهرات»![١٩] .

* وإذا كانت مجلدات [التلمود] هى الشريعة المعتمدة التى شرحت أسفار [العهد القديم]، فإن هذه الأسفار هى المرجعية العليا المعتمدة، لا عند اليهود فقط، بل وعند النصارى أيضًا، وهى الينبوع الطافح بهذه العنصرية الدموية، المكونة لثقافة الكراهية السوداء ضد سائر الأغيار، من مختلف الأمم والشعوب، والديانات والحضارات . . أى ضد سائر خلق الله! . .

ـ لقد جعل اليهود لهم إلهًا خاصًا بهم، «يهوه» وجعلوه «رب الجنود . . والجيوش . . المتعطش للارتواء بدماء كل الأمم والشعوب ـ غير اليهود ـ . . وتحريم ـ أى إهلاك وإبادة ـ كل مكونات الحياة لدى كل الأمم والشعوب ـ غير اليهود»!! . .

ولذلك، كتبوا على لسان «يهوه» فى سفر حزقيال . . [إصحاح ٣٩ : ١٧ ـ ١٩] :

ـ «هكذا قال السيد الرب : قل لطائر كل جناح ولكل وحوش البر اجتمعوا وتعالوا احتشدوا من كل جهة إلى ذبيحتى التى أنا ذابحها لكم، ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل لتأكلوا لحمًا وتشربوا دمًا . تأكلوا لحم الجبابرة وتشربوا دم رؤساء الأرض، كباش وحملان وأعتدة وثيران من مسمنات باشان، وتأكلون الشحم إلى الشبع وتشربون الدم إلى السكر من ذبيحتى التى ذبحتها لكم»!! . .

كما كتبوا على لسان ذلك الرب فى سفر أشعيا. [إصحاح ٣٤: ١ ـ ٦]:

ـ «اقتربوا أيها الأمم لتسمعوا، وأيها الشعوب اصغوا لتسمع الأرض وملؤها، المسكونة وكل نتائجها؛ لأن للرب سخطًا على كل الأمم وحُموًا على جيشهم. قد حرمهم ـ أهلكهم ـ ودفعهم إلى الذبح. فقتلاهم تطرح وجيفهم تصعد نتانتها وتسيل الجبال بدمائهم، ويغنى جند السماوات: للرب سيف قد امتلأ دما»!!..

فالكون مسرح للذبح والمذبحة والذبيحة، تهلك فيها كل شعوب الأرض ورؤساؤها، لتطرح جيفهم، وتصعد نتانتها، وتسيل بدمائهم الجبال، حتى تسكر الطيور والوحوش بدماء سائر الشعوب.. ويغنى جند بنى إسرائيل: إن للرب سيفا قد امتلأ دما!!..

ولماذا كل هذا؟!..

ليشفى «شعب الله المختار» غليله من كل الأغيار!!..

ولتأبيد هذه الثقافة العنصرية الدموية تجاه جميع الأغيار ـ من كل الأمم والشعوب والديانات والحضارات ـ قرن أحبار اليهود ـ الذين أعادوا كتابة أسفار التوراة فى مناخ السبى البابلى، وفى ظلال أحقادهم فيه ـ قرنوا العقيدة العنصرية، التى تجعلهم ـ وحدهم ـ أبناء الله وأحباؤه وأولياؤه وشعبه المختار، بل والمقدس، دون كل الشعوب، وفوق جميع الشعوب، قرنوها بدعوة الرب إياهم إلى إبادة الشعوب، بل وأكلهم أكلاً!!.. فنثروا فى أسفار العهد القديم النصوص، التى نسبوها إلى ربهم، والتى تقول لهم ـ على سبيل المثال ـ:

ـ «فقال الرب لموسى: اكتب هذا تذكارًا فى الكتاب، وضعه فى مسامع يشوع: فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء» سفر الخروج. [إصحاح ١٧: ١٤].

ـ «إن سمعت عن إحدى مدنك التى يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولا.. فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرّمها ـ تهلكها ـ بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف. تجمع كل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلاً إلى الأبد لا تبنى بعد.. لكى يرجع الرب عن حموّ غضبه ويعطيك رحمة»! ـ سفر التثنية. [إصحاح ١٣: ١٢، ١٥ ـ ١٧].

فرحمة الرب مرهونة مشروطة بإبادة الأغيار وكل مكونات الحياة عند هؤلاء الأغيار، لمجرد أنهم «قالوا قولا» سمعه اليهود! . .

ـ «وكلم الرب موسى فى عربات موآب على أرْدُنّ أريحا قائلا: كلّم إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون للأردن إلى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم. . تملكون الأرض وتسكنون فيها، وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكا فى أعينكم ومناخس فى جوانبكم ويضايقونكم فى الأرض التى أنتم ساكنون فيها، فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم»! سفر العدد. [إصحاح. ٣٣: ٥٠ـ٥٣، ٥٥، ٥٦].

«وحين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويُستعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. أما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن. فلا تَستَبقِ منها نسمة ما. بل تحرمها ـ تهلكها»

سفر التثنية. [إصحاح ٢: ١٠ـ١٦].

فالذين يصالحون ويسلّمون، لهم العبودية والاستعباد. . والذين لا يصالحون ولا يسلمون لهم الإبادة والدمار!! . .

ـ «يقف الأجانب ويرعون غنمكم، ويكون بنو الغريب حرّاثيكم وكرّاميكم، أما أنتم فتدعون كهنة الرب، تأكلون ثروة الأمم، وعلى مجدهم تتأمّرون»!

سفر أشعيا. [إصحاح ٦١: ٥].

فكل الأجانب وجميع الغرباء وسائر الأغيار خدم وعبيد مسخرون عند اليهود، الذين يأكلون ثروة كل الأمم، ويتملكون ويتأمرون على سائر الشعوب!! . .

ـ «سبع شعوب دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرّمهم ـ تهلكهم ـ . . لا تقطع لهم عهدًا ولا تشفق عليهم. ولا تصاهرهم. . لأنك أنت شعب مقدس للرب

إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. مباركًا تكون فوق جميع الشعوب، لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا فى بهائمك. ويرد الرب عنك كل مرض، وكل أدواء مصر الرديئة التى عرفتها لايضعها عليك، بل يجعلها على مبغضيك. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم»!!!

سفر التثنية. [إصحاح ٧: ١ ـ ٣، ٦، ٧، ١٤ ـ ١٦].

إنها ذروة العنصرية، وقمة الدموية، وخلاصة هذه النزعة التى تجاوزت كل الحدود.. اليهود شعب الله المختار، الذى اختاره دون جميع الشعوب، وجعله فوق جميع الشعوب، بل هم الشعب المقدس ـ مع بهائمه كذلك! ـ لا تصيبه أى من الأمراض.. التى يدفعها الرب إلى أعداء اليهود..

وفى هذا النص، لم يكتفوا بأن تكون لهم السيادة والإمارة على الأمم، وبأن يأكلوا ثروات الأمم، ويستعبدوا تلك الأمم. فأضافوا إلى كل ذلك التشريع «لأكل كل الشعوب».. دونما عهد يُقطَع.. ولا عين تشفق على تلك الشعوب!..

* * *

* ولم يكتفوا بتأثيرات هذه النصوص «الدينية» ـ وغيرها كثير ـ فى تأجيج نيران الثقافة العنصرية ـ ثقافة الكراهية السوداء ـ تجاه جميع الأغيار.. وإنما ذهبوا لتأبيدها، وتأبيد تأثيراتها العنصرية على امتداد الدهور.

فبعد أن جعلوا إلههم هذا ـ يهوه ـ «الرب الذى لا يبرئ، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء»! ـ سفر العدد. [إصحاح ١٤: ١٨].. امتدوا بهذه العنصرية، وهذه الكراهية، وهذه الإبادة لتفعل فعلها فى واقع الممارسات التى يمارسها الكيان الصهيونى ضد الفلسطينيين، فى واقعنا المعاصر والمعيش! ـ وذلك بدعم من الصليبية الغربية، شريكتهم فى ثقافة العهد القديم!

ـ فالحاخام «العقيد. أ. فيدان (زيمبل) يفتى ـ فى سبعينيات القرن العشرين ـ فتوى تنشرها القيادة العسكرية للمنطقة الوسطى فى الجيش الصهيونى ـ التى تقع الضفة

الغربية تحت سلطتها ـ يجدد فيها ويطبق هذه النصوص العنصرية الدموية التى كتبت فى العهد القديم . . ويقول فى هذه الفتوى المعاصرة .

«فى حالة احتكاك قواتنا بمدنيين خلال الحرب، أو خلال مطاردة حامية، أو غارة، إذا لم يتوافر دليل بعدم إلحاقهم الأذى بقواتنا، هناك إمكانية لقتلهم، أو حتى ضرورة للقيام بذلك حسب الهالاكاه ـ الشريعة ـ . . بل تحض الهالاكاه على قتل حتى المدنيين الطيبين»!![٢٠] .

فالقتل واجب للمدنيين الطيبين، بمقتضى الشريعة الحاكمة والمكونة لهذه الثقافة العنصرية الدموية . .

ـ أما الحاخام «شمعون وايزر»، فإنه يفسر لأحد الجنود الصهاينة الذين يخدمون فى فلسطين المحتلة سنة ١٩٦٧م نص العهد القديم : «**ولتمح ذكرى العماليق من تحت السماء**» سفر التثنية . . [إصحاح ٢٥ : ١٩]، فيجعل الفلسطينيين ـ وكل الأغيار ـ المعاصرين مثل «العماليق»، المطلوب ـ دائما وأبدا كلما أمكن ـ محو ذكراهم من تحت السماء . . فيقول هذا الحاخام :

«إنه لا يسمح فى زمن الحرب بقتل كل عربى أو امرأة فحسب، بل يجب القيام بذلك أيضا»![٢١]

ـ وحتى لحظات كتابة هذه الدراسة ـ مارس سنة ٢٠٠٥م ـ يعلن الحاخام الصهيونى البارز «دافيد دودكفيتش» حاخام مستوطنة «يتسهار» ـ المقامة على الأرض الفلسطينية المحتلة، قرب مدينة نابلس، فى الضفة الغربية ـ والذى يمثل المرجعية الروحية الرئيسية «لفتية التلال» اليهود، الذين يقومون بالاستيلاء على الأراضى الفلسطينية عنوة، ويقيمون عليها المستوطنات اليهودية يعلن هذا الخاحام البارز ـ فى مقابلة صحفية مع المجلة الأسبوعية الصهيونية «بشيفع» ـ أنه «**يزوّد المستوطنين اليهود بالتعليمات المفصلة التى تبيح لهم، بل وتحضهم على سرقة المحاصيل الزراعية للفلسطينيين»!! . . مبررا السرقة والاستيطان بقوله : «إننى لا أرى أن هذا الأمر غير شرعى من ناحية التوراة . هذه أوامر الرب»!!**[٢٢]

فالاستيلاء على أرض الأغيار، وحتى سرقة المحاصيل الزراعية التى زرعها الأغيار هو «أوامر» الرب لليهود حسب التوراة! . .

* * *

تلك هى العنصرية اليهودية . . التى أدركها . . وتحدث عنها الإمام محمد عبده، عندما قال ـ فى تفسير قول الله ـ سبحانه ـ على لسان اليهود: ﴿ولا تُؤْمِنُوا إلاَّ لمن تبع دينكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣].

«إن اليهود حصروا الثقة بأنفسهم لزعمهم أن النبوة لا تكون إلا فيهم. بل غلوا فى التعصب والغرور حتى حقروا جميع الناس، فجعلوا كل ما يكون من أنفسهم حسنا، وما يكون من غيرهم قبيحا، وهذا من الانتكاس الذى يحول بين أهله وبين كل خير.

وإننا نرى من الناس اليوم من يحاول تغرير قومه بحملهم على أن يكونوا كذلك، يحقرون كل ما لم يأت منهم وإن كان حسنًا. فنعوذ بالله من الخذلان، وعسى أن يعتبر هؤلاء بما رد الله به على أهل الكتاب إذ قال لنبيه: ﴿قُلْ إنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّه﴾ [آل عمران: ٧٣]. لا هدى شعب معين هو لازم من لوازم ذاته، فهو ـ سبحانه ـ يبين هذه على لسان من شاء من عباده، لا تتقيد مشيئته بأحد ولا شعب»[٢٣].

* * *

ـ٦ـ

العصمة الدولية لشعب الله المختار!

ولو أن هذه العقيدة العنصرية الدموية قد وقفت عند اليهود، لهان الأمر بعض الشيء، ولجاز أن نقول إنها شذوذ فكرى، تقف حدوده وتأثيراته الكارثية عند أقلية لا يتعدى عددها ثلاثة عشر مليونًا من الناس.. لكن الطامة الكبرى أن أصبحت هذه العقيدة العنصرية الدموية ـ أن اليهود هم شعب الله المختار، دائمًا وأبدًا ـ عقيدة دينية للصليبية الغربية، التى تلعب الدور الأكبر فى توجيه السياسة الدولية الحديثة والمعاصرة.

فمنذ التحول العقدى الذى أحدثه «مارتن لوثر» [١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م] فى النصرانية الغربية، أصبح العهد القديم مرجعية مقدسة فى هذه النصرانية ـ وخاصة البروتستانتية منها ـ.. وأصبحت هذه المسيحية الغربية ـ فى جملتها ـ «مسيحية ـ صهيونية»، تؤمن بأن:

١ ـ اليهود هم شعب الله المختار.. ليس فى التاريخ القديم فقط ـ كما هو الحال عند الكنيسة الأرثوذكسية ـ وإنما لا يزالوان هم شعب الله المختار..

٢ ـ وبأن الميثاق الإلهى الرابط بين اليهود والأرض المقدسة قائم أبدا.

٣ ـ وبأن عودة المسيح ليحكم الأرض ألف سنة سعيدة ـ رؤيا العودة وأسطورة الألفية ـ مشروطة بعودة اليهود إلى فلسطين، وإقامة الدولة الصهيونية، وإحلال اليهود محل الفلسطينيين، وبناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى.

ومنذ ذلك التاريخ غدت «المسيحية الصهيونية» عقيدة لكنائس غربية كثيرة، وموجهة لدول ومؤسسات وقيادات، تضفى القداسة على شعب الله المختار ـ اليهود ـ

وتتخذهم سبيلا لإقامة الدولة الخادمة للمشروع الإمبريالى الغربى فى قلب العالم الإسلامى، والتى يفتح قيامها الباب لعودة المسيح، وتحقيق الرؤى والأساطير المسيحية الصهيونية...

وانطلاقا من هذا التطور «العقدى ـ والسياسى»، تحول الكيان الصهيونى ـ الذى أقيم على أرض فلسطين سنة ١٩٤٨م ـ إلى ما هو أكثر من «دولة» من دول العالم.. تحول إلى «تجلٍّ إلهى» وتحقيق «لنبوءة توراتية مقدسة»، ومن ثم أصبحت «عصمة شعب الله المختار» عقيدة موجهة لسياسة المشروع الإمبريالى الغربى، تجعل اليهود ودولتهم «كيانًا معصومًا» من أن تطبق عليه القوانين الدولية والإرادات البشرية.. ولا تطبق عليه إلا معايير التوراة ـ بنصوصها العنصرية ـ فهو فعال لما يريد، ولا يُسأل عما يفعل ـ ككل معصوم ـ.. بل لقد أصبح النقد ـ مجرد النقد ـ لسياسات وممارسات هذا الكيان ـ الدموية ـ جريمة تتسابق الدول الغربية لمحاكمة مقترفيها!!..

لقد أصبح «الڤيتو» الأمريكى ـ فى مجلس الأمن ـ هو حارس «العصمة لشعب الله المختار» وكيانه الصهيونى على أرض فلسطين.. وغدت تصريحات زعماء اليمين الدينى.. وقساوسة المسيحية الصهيونية عن أن إسرائيل كيان دينى، وتجلٍّ إلهى، ونبوءة توراتية مقدسة ومعصومة من أن تعامل كمجرد دولة، تطبق عليها القوانين البشرية ـ ومنها القوانين والقرارات الدولية ـ حتى لو صدرت عن المؤسسات الدولية ـ أصبح ذلك أمرًا مقررًا وشائعًا ومرعيًا ومطبقًا فى التعامل مع الكيان الصهيونى القائم على أرض فلسطين.. فشعب الله المختار ـ كما قالت أسفار العهد القديم ـ «شعب مقدس.. دون جميع الشعوب.. وفوق جميع الشعوب».. ولديه تفويض «إلهى» بأن يأكل كل الشعوب أكلا، وأن يمحو ذكرى أعدائه ـ العرب والمسلمين ـ من تحت السماء، كما حدث للعماليق!..

وإذا كنا قد فصلنا القول فى هذه القضية بكتابنا [فى فقه الصراع على القدس وفلسطين][٢٤]، فإننا نكتفى ـ هنا ـ بهذه «الإعلانات» المفصحة عن هذه العقيدة السائدة الحاكمة فى دول ومؤسسات الصليبية الغربية ـ والأمريكية منها على وجه الخصوص ـ:

* فالرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» يخطب أمام إحدى المنظمات اليهودية

الأمريكية ـ فى العاشر من سبتمبر سنة ١٩٦٨م ـ أى عقب انتصار إسرائيل فى حرب «الأيام الستة» ـ فيقول لهم :

«إن لأكثركم، إن لم يكن لجميعكم، روابط عميقة مع أرض ومع شعب إسرائيل، كما هو الأمر بالنسبة إلىَّ؛ ذلك لأن إيمانى المسيحى انطلق من إيمانكم. إن القصص التوراتية محبوكة مع ذكريات طفولتى»[٢٥].

* أما الرئيس الأمريكى «چيمى كارتر» فإنه يضع كل النقاط على جميع الحروف عندما يعلن ـ فى خطابه أول مايو سنة ١٩٧٨م ـ :

«إن العودة إلى أرض التوراة التى أخرج منها اليهود منذ مئات السنين، وإن إقامة الأمة الإسرائيلية فى أرضها هو تحقيق لنبوءة توراتية، وهى تشكل جوهر هذه النبوءة»[٢٦].

* أما الرئيس «رونالد ريجان»، فإنه يعلن عن أن نبوءات العهد القديم هى التى ترسم له سياسته فى الصراعات الدولية، وتسيطر على مشاعره «إزاء إسرائيل، فيقول ـ سنة ١٩٨٤م ـ فى حديث مع صحيفة «واشنطن بوست» :

«إننى أعود إلى النبوءات القديمة المذكورة فى العهد القديم، وإلى المؤشرات حول «هرمجدون» ـ المعركة الأسطورية التى ستعقب حشر اليهود فى فلسطين.. وبناء الهيكل.. والتى سيباد فيها ملايين البشر، ليعود المسيح من جديد ـ فأتساءل بينى وبين نفسى : ما إذا كنا الجيل الذى سيرى تحقق هذه النبوءات.. إن هذه النبوءات تصف بالتأكيد ما نمر به الآن»[٢٧].

* أما قساوسة اليمين الدينى والمسيحية الصهيونية، فإنهم يعلنون ـ بلسان رئيس التحالف المسيحى، المسيطر على الكونجرس الأمريكى، والمتحكم فى معركة الرئاسة الأمريكية، القس «بات روبرتسون» :

«إن هذه الأرض ـ أرض إسرائيل من النيل إلى الفرات ـ هى أرض الله، وإن لله كلمات قوية تجلب الغضب على من يقسم أرضه»![٢٨].

* ثم يأتى القس «كلارنس واجنر» ليعلنها صريحة : إن إسرائيل هى كيان إلهى

مقدس، لا تطبق عليها القوانين البشرية؛ لأنها قانون توراتى، لشعب الله المقدس والمختار والمعصوم، فيقول ـ عن السياسات والمفاوضات والاتفاقات البشرية حول الصراع العربى الصهيونى ـ:

«علينا أن نشجع الآخرين على فهم الخطط الإلهية وليس الخطط التى هى من صنع الإنسان فى الأمم المتحدة، أو حتى فى الولايات المتحدة، أو الاتحاد الأوروبى، أو فى أوسلو أو فى واى ريفر إلخ. إن الله بعيد عن أى مخطط يعرض مدينة القدس للصراع، بما فى ذلك منطقة جبل الهيكل وجبل الزيتون ـ حيث المسجد الأقصى ـ وهو ـ الله ـ أبعد ما يكون عن إعطاء القدس للعالم الإسلامى، إن المسيح لن يعود إلى مدينة إسلامية تدعى القدس، ولكنه سيعود إلى مدينة يهودية موحدة تدعى (جروزالم)..»[٢٩].

فشعب الله المختار.. المقدس فوق جميع الشعوب، ودون جميع الشعوب، له وحده هذه الأرض ـ أرض الله ـ والخطط الحاكمة لأفعال هذا الشعب المقدس هى «الخطط الإلهية»، وليست خطط الأمم المتحدة ولا غيرها من «الخطط التى هى من صنع الإنسان»!!..

***

تلك هى النزعة العنصرية الدموية «لعقيدة شعب الله المختار».. كما تجلت فى نصوص العهد القديم.. والتلمود.. والسياسة والثقافة التى تحكم الكيان الصهيونى على أرض فلسطين..

وتلك هى الأبعاد التى اتخذتها هذه العقيدة فى المسيحية الصهيونية الغربية.. وفى الفكر الحاكم والموجه لمشروع الهيمنة الغربية.. أشرنا إلى معالمها منذ تبلورها فى النصوص التى كتبها أحبار اليهود إبان حقبة السبى البابلى [٧٢١ ق.م]، وحتى هذه اللحظات..

فأين هذه «العنصرية الدموية» ـ الخرافية ـ من النزعة الإنسانية التى تجلت فيها العدالة الإلهية، التى حكمت المنهاج الإسلامى فى تحديد الصفات والشروط والمعايير الحاكمة لخيرية الأمة الإسلامية؟؟..

وصدق الله العظيم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والحمد لله على نعمة الإسلام.. وإنسانية الإسلام.. وعدالة المنهاج الإسلامى فى العلاقات بين الأمم والشعوب والديانات والحضارات.

الهوامش:

(١) الراغب الأصفهانى : [المفردات فى غريب القرآن] ـ مصطلح «الأمة» ـ طبعة دار التحرير ـ القاهرة، سنة ١٩٩١م.

(٢) المصدر السابق ـ مصطلح «خير».

(٣) المصدر السابق ـ مصطلح «المعروف» و«المنكر».

(٤) الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ ٥ ص ٥٤ ـ ٥٥. دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق ـ القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

(٥) المصدر السابق. جـ ٥ ص ٥٤.

(٦) المصدر السابق. جـ ٥ ص ٥٩ ـ ٦٥.

(٧) المصدر السابق. جـ ٥ ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٨) المصدر السابق. جـ ٥ ص ٥٧ ـ ٥٩.

(٩) إسرائيل شاحاك [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ص ٧٧ ترجمة : حسن خضر. طبعة دار سينا ـ القاهرة، سنة ١٩٩٤م.

(١٠) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ـ من عهد رسول الله ﷺ إلى نصارى نجران ـ ص ١٢٦ ـ تحقيق : د. محمد حميد الله الحيدر آبادى. طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٦م.

(١١) [نهج البلاغة] ص ٣٣٤ ـ بشرح الإمام محمد عبده ـ تحقيق : محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البنا ـ طبعة دار الشعب ـ القاهرة.

(١٢) [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ص ١٦٨.

(١٣) المرجع السابق. ص ٣٦، ٣٧، ٤٠.

(١٤) المرجع السابق. ص ١٦٨ ـ ١٧١، ٣٤.

(١٥) المرجع السابق. ص ١٥٨.

(١٦) المرجع السابق. ص ١٦١.

(١٧) المرجع السابق. ص ١٦٢.

(١٨) المرجع السابق. ص ١٦٠، ١٧٣.

(١٩) المرجع السابق. ص ١٦٢.

(٢٠) المرجع السابق. ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢١) المرجع السابق. ص ١٣٦ ـ ١٤٠.

(٢٢) صحيفة «الشرق الأوسط» ـ لندن ـ فى ٦ / ٣/ ٢٠٠٥م ـ رسالة الصحفى «صالح النعيمى» ـ من غزة.

(٢٣) [الأعمال الكاملة] جـ ٥ ص ٤٣. طبعة بيروت، سنة ١٩٧٢م.

(٢٤) د. محمد عمارة [فى فقه الصراع على القدس وفلسطين] طبعة دار الشروق ـ القاهرة، ٢٠٠٥م.

(٢٥) محمد السماك [الدين فى القرار الأمريكى] ص ٤١. طبعة بيروت، سنة ١٤٢٤هـ ـ سنة ٢٠٠٣م.

(٢٦) المرجع السابق. ص ٤١ ـ ٤٢.

(٢٧) المرجع السابق. ص ٤٣.

(٢٨) المرجع السابق. ص ٧٦.

(٢٩) المرجع السابق. ص ٧٦.

المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم**

* **العهد القديم**

* **إسرائيل شاحاك**: [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ترجمة: حسن خضر. طبعة دار سينا ـ القاهرة، سنة ١٩٩٤م.

* **الراغب الأصفهانى**: [المفردات فى غريب القرآن] طبعة دار التحرير ـ القاهرة، سنة ١٩٩١م.

* **صالح النعيمى**: صحيفة [الشرق الأوسط] ـ لندن ـ فى ٦/ ٣/ ٢٠٠٥م.

* **على بن أبى طالب**: [نهج البلاغة] ـ بشرح الإمام محمد عبده ـ تحقيق: محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البنا ـ طبعة دار الشعب ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

* **د. محمد حميد الله ـ محقق ـ**: [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٦م.

* **محمد السماك**: [الدين فى القرار الأمريكى] طبعة دار النفائس ـ بيروت، سنة ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

* **محمد عبده ـ الأستاذ الإمام ـ**: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق ـ القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

* **د. محمد عمارة**: [فى فقه الصراع على القدس وفلسطين] طبعة دار الشروق ـ القاهرة، سنة ٢٠٠٥م.

* * *